الرواية الوجودية بين الفلسفة والأدب

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

ليس من شك في أن القارىء العربي الذي اطلع على روايات سارتر أو كامو أو سيمون دي بوفوار يعلم تمام العلم أنه بازاء نوع جديد من « الرواية » غير ما اعتاد ان يقرأه لدى روائيين اخرين من امثال فلوبير او بلزاك اواميل زولا أو غيرهم . ولكنك لو ساءلت القارىء العادي عما يميز هذه الروايات « الوجودية » — ان صح هذا التعبير — عما عداها من الروايات ، لكان جوابه انها روايات فلسفية تناقش مشكلات ميتافيزيقية في سياق روائي ، فتقدم لنا مزيجا من « الادب الفلسفي » (١) . ونحن لا ننكر ان « الرواية الوجودية » رواية فلسفية تمزج الادب بالميتافيزيقا، وتحلل الانسان بوصفه موجودا حرا تفيض تجربته بالعمق والثراء والواقعية ، ولكننا نعتقد ان روائيين كثيرين قبل سارتر واتباعه قد قدموا لنا من خلال أعمالهم الفنية نظرات خاصة الى الوجود . حقا ان هؤلاء الروائيين لم يقدموا لنا قضايا حاولوا البرهنة عليها ، او موضوعات أرادوا التدليل على صحتها ، ولكنهم حاولوا ان يضعوا بين أيدينا احداثا انسانية تنطوي على مدلولات فلسفية، ومواقف بشرية لا تخلو من معان ميتافيزيقية .. حسبنا ان نرجع الى بلزاك وستندال ودوستويفسكي وبروست ومالرو وكافكا وغيرهم ، لكي نتحقق من أن كل هؤلاء — وغيرهم كثير — روائيون فلاسفة قد اهتموا بمشكلات المصير الشخصي، والقلق امام الموت، والعلاقات الشخصية مع الاخرين ، وصراع الحب ، وغير ذلك من موضوعات انسانية ترتبط بآلام الفرد وآماله ...

بيد أن الرواية الوجودية لم تعد تقف من الانسان موقفا موضوعيا على نحو ماكان يفعل فلوبير ، او موقفا تهكميا ساخرا على نحو ما كان يفعل اناتول فرانس ، كما انها لم تعد تهتم بأن تقدم لنا عن الانسان دراسات اجتماعية طويلة الباع على نحو ما كان يفعل بلزاك أو اميل زولا ، بل هي قد اصبحت تقدم لنا عن الانسان صورة واقعية ملموسة ، تصوره لنا في اطاره الاجتماعي المبتذل ، او تصفه لنا في جوه العائلي الاعتيادي ، فتكشف لنا عن عمق أهوائه ورذائله وشتى مظاهر نقصه ، وتجرده من وظائفه الاجتماعية لكي تضعه وجها لوجه أمامنا على نحو ما هو في صميم علاقاته بذاته، وبالعالم، وبغيره من أبناء هذا العالم . . .

ولعل هذا هو ما أرادت سيمون دي بوفوار ان تعبر عنه حينما كتبت تقول: «أن لكل تجربة انسانية بعدا سيكولوجيا خاصا. ولكن على حين نجد ان الباحث النظري يستخلص تلك المعاني محاولا دائما ان يكون منها مركبا عقليا مجردا ، نرى ان الروائي يعبر عنها تعبيرا حيا بأن يضعها في سياقها الفردي الواقعي. واذا كان بروست مثلا يبدو مملا سقيما باعتباره تلميذا لزيبو ، حتى اننا لنكاد نجزم بأنه لا يأتي بجديد على الاطلاق ، فانه بوصفه روائيا أصيلا يكشف لنا عن حقائق جديدة لم يستطع أي باحث نظري في عصره ان يشير ضمنا او صراحة الى أي معادل تجريدي لها » (١).

والواقع ان الوجودية ان هي الا جهد يراد به التوفيق بين الموضوعي والذاتي ، بين المطلق والنسبي، بين اللازمني والتاريخي ، بين العمق الفكري والثقل المادي ا.. الخ. والوجودية أيضا محاولة انسانية شاقة من اجل ادراك الماهية في صميم الوجود ، والكشف عن معنى الحياة من خلال المواقف والاحداث . فليس بدعا ان نراها ترحب بالرواية وتصطنع اسلوب التأليف الروائي ، ما دامت الرواية هي التي تسمح للفيلسوف بأن « يقف على الانبثاق الاصلي للوجود في حقيقته الكاملة النوعية التاريخية ». حقا ان ثمة فلاسفة يزدرون أسلوب التعبير الروائي ، ولا يرون موضعا للمزج بين الفلسفة والقصة ، ولكن هؤلاء — فيما تقول سيمون دي بوفوار — انما هم اولئك الفلاسفة الذين يفصلون الماهية عن الوجود ، ويحتقرون « المظهر » بوصفه دون « الحقيقة المستترة » ! وامـا اذا عرفنا ان « المظهر » نفسه « حقيقة » ، وان « الوجود » انما هو حامل « الماهية » ، وانه لا سبيل الى فصل الابتسامة عن الوجه الباسم ، ومعنى الحدث عن الحدث نفسه ، فهنالك لا بد لعياننا الفلسفي من ان يعبر عن نفسه من خلال اللمع الحسية والبوارق المادية (على حد الاصطلاح الصوفي الاسلامي) التي تنبعث من العالم الارضي نفسه . ومن هنا فقد التجأ الفكر الوجودي الى الروايات والقصص والمسرحيات ، ليلتمس فيها تعبيرا حيا خصبا عن شتى خبرات الانسان الوجودية بوصفه « كائنا ميتافيزيقيا »

(١) Cf. R. Campbell : « J.P. Sartre : Une Littérature Philosophique » Paris, Pierre Ardent, 3e éd., 1947.

(١) Simone de Beauvoir : L'Existentialisme et la Sagesse des Nations » , Paris, Nagel, 1948, p. 114.

يحيا في العالم ومع الاخرين . (١)

ولا تنحصر مهمة الروائي الوجودي في استغلال بعض الحقائق السابقة المحصلة فلسفيا ، في مضمار العمل الادبي او الانتاج الفني ، وانما تنحصر مهمته في الكشف عن « مظهر » معين من مظاهر التجربة الميتافيزيقية، الا وهو ذلك المظهر الذي لا سبيل الى تبيانه على أي نحو اخر ، نظرا لما يتسم به من طابع ذاتي ، جزئي ، درامي . وما دامت الحقيقة ـ فيما يرى الوجوديون ـ لا تدرك عن طريق العقل وحده ، فان أي وصف عقلي لا يمكن ان يقدم لنا عن « الواقع » صورة صادقة مكافئة . ولهذا يحاول الروائيون الوجوديون ان يعبروا عن الواقع في شتى مظاهره ، على نحو ما ينكشف لهم من خلال تلك العلاقة الحية التي تربط الانسان بالعالم ، وهي تلك العلاقة التي يقولون انها في صميمها فعل وعاطفة ، قبل ان تكون فكرا وتصورا . وهم حين يصطنعون الرواية للتعبير عن الواقع على هذا النحو من العمق والنفاذ والنصاعة ، فانهم لا يسترسلون في شرح تعليمي يقتل الرواية او يحيلها الى مجرد محاضرة فلسفية ، بل هم يكيفون الملاحظات الذاتية مع اللقطات الموضوعية ، ويحققون التكامل بين تحليل العواطف وتوازن الاحداث او المواقف . وعلى حين ان بعض دعاة « الادب الموجه » قد يتخذون من الرواية مجرد ذريعة او مناسبة لتقديم بعض الدعاوى الفكرية او القضايا الفلسفية ، نجد أن جماعة الروائيين الوجوديين يعمقون احداث الحياة اليومية على مستوى ميتافيزيقي ، فينفذون الى جذور الوجود الانساني ، دون التوقف عند المناقشات الفكرية الخالصة او المساجلات الجدلية المحضة .

صحيح ان رواية « الغريب » لالبير كامو هي تصوير روائي لفلسفته العبثية، وصحيح ايضا ان روايته «الطاعون» تعرض لنا في ثنايا أحداثها الدرامية قضية « الانسان المتمرد » ، ولكن من المؤكد ان كامو ـ في كلتا الروايتين ـ انما يقدم لنا عملا فنيا نستمتع به ونستغرق فيه ، دون ان يحشد في هذا العمل أدلة عقلية أو براهين فلسفية. وقد نجد في رواية « المثقفين » لسيمون دي بوفوار بعض مناقشات فلسفية أو مساجلات سياسية تجري بين بعض أشخاص الرواية ، ولكن الذي لا شك فيه ان القضايا التي يطرحها هؤلاء الاشخاص ليست محض قضايا ميتافيزيقية مجردة ، بل هي مواقف انسانية حية تنبع من صميم تجاربهم المعاشة ... والواقع أنه ليس أفسد للعمل الادبي ـ روائيا كان أم مسرحيا ـ من ان يتخذ صورة قضية يظهر صاحبها بمظهر الباحث الذي يسعى جاهدا في سبيل الحصول على ادلة او براهين لتأييد مذهب او الدفاع عن قضية . وربما كان بريبه محقا حين يقول: « ان ثمة أعمالا ادبية نجد فيها ان الروائي قد استحال الى مفكر جدلي ، كما أن ثمة اعمالا فلسفية نجد فيها ان المفكر الجدلي قد استحال الى روائي ، ولكن من المؤكد ان مثل هذه الاعمال انما هي الدليل القاطع على ان عصرنا الحاضر لا يخلو ـ مع الاسف ـ من ذوق رديء ، وفهم سيء ، وميل الى الخلط » (٢) . وقد يقع في ظن البعض ان بريبه يشير من طرف خفي الى بعض الاعمال الادبية التي انتجها الوجوديون ، ولكننا نعتقد انه اذا صح ان هذا الحكم قد

(١) ارجع الى مقدمتنا للترجمة العربية لمسرحية سارتر « جلسة سرية » ، دار النشر المصرية ، ص ٧ .

(٢) E. Bréhier : Transformation de la Philosophie Française, « 1950, pp 190 - 194 .

البير كامو

يصدق على بعض مسرحيات جبرييل مارسل ، فانه قد يكون من التجني الصارخ أن نطبق مثل هذا الحكم على روايات سارتر ، أو سيمون دي بوفوار ، أو البير كامو . والسبب في ذلك اننا لا نجد عند هؤلاء قضايا جاهزة يحاولون البرهنة عليها ، او تعاليم عقلية يعملون على اثبات صحتها ، بل نحن نجد لديهم دائما ابدا مواقف انسانية معاشة ، واحداثا تاريخية معمقة ، وربطا مستمرا للخاص بالعام . ويعجبني ـ في هذا الصدد ـ ما كتبه أحد اخواننا العرب في تعليق له على رواية « المثقفين » لسيمون دي بوفوار ، فقد فطن هذا الباحث ان ان «مهارة الكاتبة وذكاءها كروائية أصيلة ينبعان من قدرتها على تطوير كل قضية يطرحها العالم الخارجي على ابطالها تطويرا تتعمق فيه هذه القضية حتى تصل الى مستوى الموقف الانساني من الحياة بأكملها .. وان تعميق الاحداث على هذا المستوى يحمل قدرة فائقة تشير الى امكانية البحث في حياتنا اليومية على مستوى موقفنا من الوجود . لقد نبذت الكاتبة المشاكل الفكرية التقليدية التي طرقها كل من جوته ودوستويفسكي وتولستوي ، وهي مشاكل ميتافيزيقية في جوهرها ، وقدمت لنا الحياة اليومية في منظور وجودي يمنح كل حادثة عمقا يصل بها الى جذور الحياة في معناها وجدواها او عبثها » (٢) .

حقا ان سيمون دي بوفوار نفسها قد اعترفت بأن الرواية الوجودية هي في صميمها تعبير عن «البعد الميتافيزيقي

(١) محيي الدين صبحي : « المثقفون في عالم جامح » ، مجلة الاداب، اكتوبر سنة ١٩٦٢ ، ص ٥٩ (العدد العاشر) .

الذي يتحرك عبره الموجود البشري ، ولكن من المؤكد ان هذا « البعد الميتافيزيقي » انما ينكشف في « الرواية الوجودية » من خلال مواقف متعارضة واحداث متشابكة ، ومشاعر متناقضة ... الخ . وليس من الغريب ان تكون ثمة رواية سارترية ، ما دامت وجودية سارتر هي في صميمها ، فلسفة تؤكد بكل قوة ما للتجربة من طابع ذاتي ، جزئي ، عيني ، درامي تاريخي ، زماني .

واذا كان من المستحيل ان نتصور رواية ارسطاليسية او اسبينوزية او ليبنتسية ، فذلك لانه ليس للذاتية او الزمانية اي موضع في مذهب ارسطو او اسبينوزا او ليبنتس . واما عند سارتر ، فاننا دائما بصدد مواقف ميتافيزيقية ينكشف من خلالها قلق الانسان ، وعبث الحياة ، وصراع الحريات ، وجزع الموجود البشري من الموت ، وحنينه الى المطلق . الخ . وحين يحاول الفيلسوف الوجودي ان يعبر عن هذه المواقف الميتافيزيقية ، فانه لا يفسرها على الاحداث قسرا ، كما انه لا يسقطها على الشخصيات اسقاطا ، بل هو يضعها في سياقها الواقعي الجزئي ، ويدعها تنطق بلغتها الخاصة من خلال اللقطات الموضوعية . ومن هنا فان ابطال سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار ليسوا بالضرورة فلاسفة او مفكرين او اهل جدل ، بل هم أولا وبالذات موجودات بشرية تواجه مصيرها ، ويعمل كل منها على تعميق كل قضية تعترضه ، مدركا في الوقت نفسه انه « ملتزم » امام نفسه ، وامام العالم ، وامام الاخرين .

والحق ان الرواية الوجودية ليست مجرد عمل ادبي يجمع بين العمق الفلسفي والتحليل النفسي ، بل هي ايضا اسلوب جديد من اساليب التعبير الميتافيزيقي تنبع فيه عقدة القصة من ربط احداث الحياة بمعناها وغايتها . وهكذا يبدو لنا « الانسان » في الرواية الوجودية كائنا مشخصا تربطه بالعالم علاقات دينامية معقدة ، وينقضي وجوده في داخل هذا الاطار الخارجي الذي يعيش فيه ، وتتحدد حريته في نطاق ذلك السياق التاريخي الذي يحيا بين ظهرانيه ... وما كان الانسان « موجودا ميتافيزيقيا » الا لانه يضع نفسه دائما ككل ، بازاء العالم بأسره ككل ، فيواجه العالم في كل لحظة ، ويركب عالمه الخاص ابتداء من بعض المواقف الوجودية الخاصة . وحينما يقول بعض الوجوديين ان لكل حدث انساني دلالة ميتافيزيقية ، فانهم يعنون بذلك ان الانسان يجد نفسه دائما في كل حدث من الاحداث « ملتزما » بأسره ، في العالم بأسره . ومن هنا فان ابطال سارتر وسيمون دي بوفوار والبير كامو يكتشفون من خلال تجاربهم الوجودية حضورهم امام العالم ، واستناد كل واحد منهم الى ذاته وحدها ، ومقاومة الذوات الاخرى له ، واختياره لنفسه بمقتضى حريته الخاصة ... الخ . حقا ان ثمة فوارق شخصية شاسعة بين ماتيو بطل « دروب الحرية » ، وهنري بيرون احد ابطال « المثقفين » ، ومرسو بطل « الغريب » ، أو تارو احد ابطال « الطاعون » ، ولكن من المؤكد ان كل هذه الشخصيات الوجودية انما هي اولا وبالذات موجودات بشرية واعية تحيا قضايا الانسان المعاصر بكثافة وعمق ونصاعة وجودية (١) .

والظاهر ان الروائيين الوجوديين لم يريدوا لشخصياتهم ان تظل بمثابة مخلوقات سلبية يدرسها النقاد ، ويحللون سماتها ، ويفسرون تصرفاتها ، بل هم قد شاءوا ان يقدموا لنا شخصيات واعية تضطلع هي نفسها بمهمة تفسير المعاني التصويرية التي ينطوي عليها وجودها ... وآية ذلك ان الشخصيات الروائية عند سارتر تقول هي نفسها كل ما يراد لها ان تقوله ، وكل ما يمكن ان يقوله عنها الاخرون ! ومعنى هذا انها لم تعد بمثابة موضوعات دراسة ينثرها الروائي هنا وهنالك ، وانما هي قد اصبحت بمثابة شخصيات واعية تفهم ذاتها ، وتنقد سلوكها ، وتعلق على تصرفاتها . فأنت ـ مثلا ـ اذا نظرت الى شخصية ماتيو أو شخصية دانيال في رواية « دروب الحرية » ، وجدت نفسك بازاء شخصية واعية لا تنتظر منك ان تتعرف على طابعها الخاص ، او ان تدرجها تحت بعض الانماط الشخصية العامة ، لانها هي نفسها تقوم بهذه المهمة لحسابها الخاص ، دون ان تنتظر من اي ناقد فني ان يجيء فيتأولها او يفسرها او يضطلع بشرحها ! فماتيو ـ مثلا ـ يعلن منذ البداية شعار الحرية التي انتهجها لنفسه ، اذ يقول بصريح العبارة : « ان الحرية هي المنفى ، وانا محكوم علي بأن أكون حرا » .. وهو حين يقبع في داخل ذاتيته ، فانه يدرك تماما ان الحرية قضية شخصية ، وان المنفى هو ممارسة لارادته المطلقة . ولكن الاحداث التي اختلفت على فرنسا ابان الحرب لا تلبث ان تظهره على أن الحرية ليست مجرد انطلاق طائش للارادة ، بل هي تعبير عن ارادة الفرد من خلال ارادة الجماعة . وتبعا لذلك ، فانه يصطحب زملاءه ويمضي الى المعركة ، محاولا ان ينقذ ماضيه ، مدركا ان الحرية الحقيقية انما هي الالتزام وفقا لاختيار أصيل يقوم على وعي وتبصر .

وهكذا الحال ايضا بالنسبة الى شخصية مرسو في رواية « الغريب » : فان هذا الموظف البسيط في احد المكاتب بالجزائر يشعر بأن حياته اليومية سلسلة من الاعمال الروتينية ، والتصرفات الالية ، والحركات المبتذلة (أكل وشرب ونوم وتدخين) ، فهو لا يتردد في ان يصيح قائلا : « ان الامور لدي سواء ! » . وهذا « الوعي » الذي يصاحب احساس مرسو برتابة الحياة هو الذي يجعل منه بطلا وجوديا يدرك أنه لا معنى لحياته على الاطلاق . وآية ذلك انه يشعر شعورا واضحا بأن حياته « لا تتقدم نحو هدف ، ولا تنتظم حول فكرة ، بل تجري عمياء آلية . انها منسوجة من ترديد أبدي للحركات ، والافكار الصغيرة ، والاحاسيس الفجة » (١) ويقترف مرسو جريمة القتل ، فلا يلبث ان يجد نفسه وجها لوجه بازاء واقعة الموت . وهنا يجيء الموت فيزيد من حدة شعوره بعبث الحياة ، ويثير في نفسه الرغبة في التمرد ، وهكذا يبدو العبث بمثابة « وعي للموت ، ورفض له في الان نفسه » . (ص ٧٧) . ويقرأ الناقد كلمات مرسو أثناء المحاكمة ، فيدرك انه بازاء شخصية واعية تراقب ما في الحياة من واقع عبثي ، وتجد نفسها وجها لوجه امام الموت فتختار التمرد لا الانتحار ...

واما في رواية « الطاعون » ، فاننا نجد تارو يقول بكل صراحة : « ان ما يهمني بالاجمال هو ان اعرف كيف يصبح الانسان قديسا » . ويعترض عليه الطبيب ريو

---

(١) زكريا ابراهيم : « مشكلة الفلسفة » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

(١) روبير دي لوبييه : « كامو والتمرد » ، ترجمة الدكتور سهيل ادريس ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٧٠ .

بقوله : ولكنك لا تؤمن بالله » ، ولكن تارو يجيبه بقوله: « من اجل هذا أسأل سؤالي . هل في وسع الانسان ان يكون قديسا من غير الله ؟ تلك هي القضية الوحيدة المحسوسة التي اعرفها اليوم » (١) . وتمضي احداث الرواية فتزيد من شعورنا بان تارو وعي عبثي متبصر « يعرف كل شيء في الحياة » . وحين يعصف الطاعون بالاطفال والابرياء ، يجيء الوقوف على عذاب الاخرين، فيثير في نفس تارو الشعور بالحب ، ولكنه في الوقت نفسه يوقظ في قلبه الاحساس بالتمرد ايضا . وهكذا يثور تارو على الله لكي يرفضه او ينكره ، لا باسم الحب والتمرد فقط ، بل باسم تلك القداسة التي لا يمكن ان توجد مع الله !

ولكن تارو لا يكتفي بالتمرد ، بل هو يقوم بصراع عنيف ضد الشر . وهو يؤكد في الان نفسه ان هناك طاعونا داخليا يقابل ذلك الوباء الخطير الذي يطيح بالاجسام، الا وهو طاعون الروح الذي يتمثل في الحقد والكذب والكبرياء . وهو لذلك يقرر بكل صراحة « ان كل انسان يحمل في جلده الطاعون ، لانه ليس ثمة في الدنيا من هو معصوم منه » . وكما ان من واجب الطبيب ان يصارع الطاعون الجسمي ، فان من واجب الرجل النقي ان يقوم بصراع باطني ضد الشر (او الطاعون الروحي) . ومن هنا فان تارو يؤكد مرة اخرى « ان الطبيعي هو الجرثومة. واما لباقي : الا وهو الصحة والسلامة والنقاء ، فهذا كله ـ اذا شئت ـ أثر للارادة ، تلك الارادة التي لا ينبغي ان تتوقف قط . . . » (الطاعون ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٨) . ـ ويشترك الدكتور ريو مع تارو في المناقشة، فلا يلبث ان يعلن انضمامه الى زمرة العاملين من اجل التخفيف من ويلات الانسانية في الحاضر المباشر ، دون التفكير في حياة مقبلة . وريو طبيب اجسام ، لا طبيب ارواح ، فهو لذلك مهتم بصحة الانسان ، على اعتبار ان « حب الانسان يقتضي العناية به ، لا انقاذه من اجل حياة مقبلة » . ويلتقي القارىء بتارو وريو في مواقف عديدة ، فلا يكاد يجد لديهما تصرفات غامضة تحتاج الى تفسير ، بل يجد لديهما في كل مرة مشاعر انسانية تبلغ اعلى درجة من الصدق والامانة والتوتر . ولعل من هذا القبيل مثلا ما عبر عنه الدكتور ريو ببساطة ووضوح حينما قال: « . . انني استشعر مع المقهورين حظا من التضامن اكثر مما استشعر مع القديسين . واحسب اني لا احب البطولة ولا القداسة. ان الذي يهمني هو ان يكون المرء انسانا » . (ص ٢٦٠ ـ ٢٦١) . وهكذا نجد ان كل شخصيات كامو انما هي في الحقيقة شخصيات واعية لا تنتظر من أي ناقد فني ان يجيء فيتأولها او يفسرها او يحللها . . . !

ولسنا نريد ان نسترسل في شرح نماذج اخرى لبعض الشخصيات الوجودية ، وانما حسبنا ان نقول ان الرواية الوجودية لا تضع بين ايدينا ابطالا نادرين يأتون من اعمال الشجاعة والقداسة ما ليس لنا عليه يدان ، بل هي تقدم لنا في معظم الاحيان شخصيات بشرية عادية نتعاطف معها ، ونتأثر بها ، ونستجيب لها . حقا انه ليس

(١) البير كامو : « الطاعون » ترجمة الدكتور سهيل ادريس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٦٠ .

جان بول سارتر

و

بيمون دو بوفوار

من الضروري للقارىء ان يكون قد اجتاز نفس الازمات الوجودية التي مرت بها هذه الشخصيات ، ولكنه مع ذلك لن يجد أدنى صعوبة في أن يلمس ما في تصرفات تلك الشخصيات من صدق وأمانة وواقعية . ومن هنا فان القارىء العادي الذي يتابع مجرى الاحداث في رواية من روايات سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار قلما يشعر بالحاجة الى ناقد فني يأخذ بيده حتى يكشف له عن مبررات سلوك دانيال او ماتيو ، وتارو أو ريو ، وهنري بيرون او صديقه روبير دوبروي .. الخ . وحسب القارىء انه يندمج في حركة الرواية وتسلسل أحداثها ، لكي يدرك الحدث وتحاليله في آن واحد، ولكي يشارك في تصرفات الشخصيات وبواعثها في الوقت نفسه . وربما كان من بعض افضال الوجوديين على الرواية انهم قد حاولوا دائما ان يقيموا ضربا من « التوازن » بين تصوير المناظر وتسجيل الاحاسيس ، بين عرض الاحداث وتحليل العواطف ، بين اللقطات الموضوعية والملاحظات الذاتية، بين تسلسل المواقف وتناغم البواعث ... الخ. ولا شك ان هذا « التوازن » انما هو السر فيما تنطوي عليه معظم الروايات الوجودية من صدق فني وعمق فلسفي.

بيد أن البعض قد يأخذ على جماعة الروائيين الوجوديين أنهم وان كانوا قد أضفوا على الرواية عمقا فلسفيا وثقلا فكريا ، الا انهم قد انحدروا بها في كثير من الاحيان الى مستوى الاسفاف الخلقي والتبذل الجنسي. فهذا ماتيو «مثلا» أحد ابطال رواية « دروب الحرية » يغرر بصديقته مارسل ، ويتخلى عنها ، ثم يسرق مالا من عشيقة تلاميذه ، لكي يعمل على اجهاضها ! وهذه آن زوجة دوبروي في رواية « المثقفين » تخون زوجها مع أول رجل أجنبي تلتقي به ، فتذهب مع الروسي سكرياسين الى غرفته ، ثم تنقل الينا تفصيلات دقيقة لتلك الليلة الفاشلة التي قضتها معه ! ولا تلبث هذه المرأة ان تلتقي بالامريكي ليويس بروغان فتقضي معه فترة حب طويلة تدوم ثلاث سنوات ، تعود بعدها الى زوجها محطمة كسيرة النفس فتعزم على الانتحار ! وأما نادين ابنة آن فان دي بوفوار تصورها لنا بصورة الفتاة الهستيرية التي تهرب من كل مشكلاتها عن طريق الجنس ، فتفرط في الاتصالات الجنسية ، وتلوم امها لانها لم تكن بعد قد عرفت لذة الحياة الجنسية ، مما يدفع بالام الى قبول التحدي والاستسلام لاول رجل يدعوها ! والامثلة كثيرة على ما في الروايات الوجودية من مشاهد جنسية ومواقف مكشوفة، مما قد يوقع في روع القارىء المتسرع ان هذا النوع من « الرواية » يدخل في نطاق ما اعتدنا تسميته باسم «الادب المكشوف» . ولكننا نجانب الصواب حتما لو أننا استندنا الى بعض هذه المشاهد الجنسية التي ترد في تضاعيف روايات سارتر أو سيمون دي بوفوار من أجل الحكم على « دروب الحرية » أو « المثقفين » (مثلا) بأنها رواية جنسية. وحسبنا أن نقف على ما في هذه الروايات من تحليل دقيق للعواطف ، وتسجيل عميق للاحاسيس ، لكي نتحقق من اننا لسنا بصدد مشاهد اريد بها الاستثارة ، بل نحن بصدد عواطف فردية قد صورت بدقة وصراحة . وقد تروعنا نحن الشرقيين تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها ابطال الروايات الوجودية ، ولكن من المؤكد ان المواقف الغرامية التي تواجه هؤلاء الابطال ليست — في بيئاتهم — مواقف مصطنعة او احداثا غير عادية ، بل هي خبرات معاشة تتفق مع طبيعة الصلات بين الرجل والمرأة في تلك المجتمعات . وسواء أكانت هذه المواقف مظهرا من مظاهر الانهيار الخلقي الذي يعانيه المجتمع الاوروبي ، أم مجرد تعبير عن الحرية المطلقة التي نمنحها مثل هؤلاء الابطال لانفسهم في تصرفاتهم الخاصة ، فان من المؤكد ان الشخصيات التي نلتقي بها في كل روايات سارتر وسيمون دي بوفوار هي نماذج انسانية متوترة للصدق والصراحة والجرأة الخلقية . وليس غريبا ان تنطوي روايات سارتر على الكثير من المواقف الجنسية ، فاننا نعرف كيف اهتم زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية في مؤلفه الفلسفي الضخم : « الوجود والعدم » بتحليل الدلالة الانسانية للجنس ، وبيان معنى الحب ، وتعميق الرابطة الجنسية، وتفسير معاني السادية والمازوخية ، وتقديم ضرب من التحليل الوجودي لصلة الرجل بالمرأة ... واما سيمون دي بوفوار فان كتابها « الجنس الثاني » (بجزءيه) لا زال أعمق دراسة فلسفية لمشكلة المرأة ، ولا زالت آراؤها فيه عن الحرية الجنسية التي ينبغي ان تتمتع بها المرأة موضع جدال ومناقشة . فهل نستكثر على الروائي الوجودي أن يتعرض لتحليل بعض هذه المواقف الجنسية عندما يكون بصدد شخصيات حية تواجه تجربة الحب ، وتصطدم في حياتها الغرامية بمشكلة الصراع مع « الاخر » ؟

وأخيرا قد يأخذ البعض أيضا على الروائيين الوجوديين أنهم كثيرا ما يجرون على السنة ابطالهم كلمات مبتذلة ، وعبارات سوقية ، حتى اننا يندر ان نجد لدى كتاب اخرين كل هذا الحشد الضخم من الفاظ السباب وتراكيب العامة ! ونحن لا ننكر أن لغة الرواية عند سارتر أو سيمون دي بوفوار تختلف اختلافا كبيرا عن نظيرتها عند جيد او بروست (مثلا) ، ولكن من المؤكد أن الحوار العامي أقرب الى طبيعة الرواية الوجودية من أية لغة منمقة ، أو أي تراكيب لغوية بليغة . ولعل هذه التجربة التي قام بها الوجوديون حين عمدوا الى التقريب بين العامية والفصحى هي أكبر دليل على ان عمق الافكار لا يتعارض مطلقا مع سهولة التعبير . واما الالفاظ السوقية التي قد تتردد على السنة بعض الشخصيات في روايات الوجوديين، فانها لا تزيد عن كونها مجرد تعبيرات عامية تدور على كل لسان في مجتمعات جريئة لم تعد تتصنع التأدب او تتكلف التعبير ! ولسنا بصدد تبرير مثل هذا الاسلوب ، وانما حسبنا ان نذكر القارىء بأننا هنا بازاء روايات قد انبثقت في مجتمعات منهارة عانت ويلات الحرب ، والاحتلال، والتفكك الاجتماعي ، فليس بدعا ان نراها تصور لنا اشخاصا معذبين قد فقدوا ايمانهم بقيم مجتمع ما قبل الحرب ! وهكذا تتنكر شخصيات سارتر وسيمون دي بوفوار للمجتمع الفرنسي البورجوازي ، فتثور على نفاقه ، وتتمرد على لغته المنمقة ، وتنبذ تأدبه المصطنع ، لكي تؤكد فضيلة الصراحة العامية ، وتعلي من شأن لغة الكلام العادية ، وتصطنع في حوارها اساليب العامة من الناس ! وهل كانت « الرواية الوجودية » سوى مجرد تعبير عن هذا الوضع الانساني المشترك الذي يحياه اناس زالت الفوارق بينهم، وتوحد مصيرهم ، ووجدوا انفسهم — للمرة الاولى في تاريخ الانسانية — بازاء خطر مشترك يتهدد مستقبل حياتهم ؟ فكيف لمثل هذا المجتمع الجديد ان يتكلف التعبير، او ان ينمق الاسلوب ، وهو الحريص على محو الفوارق اللغوية ، ومخاطبة اناس من لحم ودم بلغة بسيطة يفهمها الجميع ؟!

(الخرطوم) **زكريا ابراهيم**